

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا وقوله تعالى : { يعلم ما يلج في الأرض } أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر { وما يخرج منها } من نبات وزرع وثمار كما قال تعالى : { وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين } وقوله تعالى : { وما ينزل من السماء } أي من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام وقد تقدم في سورة البقرة أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر به حيث يشاء [] تعالى وقوله تعالى { وما يعرج فيها } أي من الملائكة والأعمال كما جاء في الصحيح [] يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل [] وقوله تعالى : { وهو معكم أين ما كنتم و [] بما تعملون بصير } أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم برا أو بحرا في ليل أو نهار في البيوت أو القفار الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ويعلم سركم ونجواكم كما قال تعالى : { ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور } .

وقال تعالى : { سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار } فلا إله غيره ولا رب سواه وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة : حدثني أبي عن نصر بن علقمة عن أخيه عن عبد الرحمن بن عائد قال : قال عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال زودني حكمة أعيش بها فقال : [استح الله كما تستحي رجلا من صالح عشيرتك لا يفارقك] هذا حديث غريب وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن علوية العامري مرفوعا [ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان إن عبد الله وحده وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللئيمة ولا المريضة ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه] وقال رجل : يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه ؟ فقال : [يعلم أن الله معه حيث كان] وقال نعيم بن حماد C : حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي عن محمد بن مهاجر عن عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن غنم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى

اﻟﻌﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ : [ﻳﻦ ﺃﻓﻀﻞ ﺍﻟﻴﻤﺎﻥ ﺃﻥ ﺗﻌﻠﻢ ﺃﻥ ﺍﻟﻌﻢ ﺣﻴﺜﻤﺎ ﻛﻨﺖ] ﻏﺮﻳﺐ ﻭﻛﺎﻥ ﺍﻟﻴﻤﺎﻡ ﺃﺣﻤﺪ . : ﺍﻟﺒﻴﺘﻴﻦ ﻫﺬﻳﻦ ﻳﻨﺸﺪ ﺗﻌﺎﻟﻰ C

ﺇﺫﺍ ﻣﺎ ﺧﻠﻮﺕ ﺍﻟﺪﻫﺮ ﻳﻮﻣﺎ ﻓﻼ ﺗﻘﻞ ﺧﻠﻮﺕ ﻭﻟﻜﻦ ﻗﻞ ﻋﻠﻰ ﺭﻗﻴﺐ .
ﻭﻻ ﺗﺤﺴﺐ ﺍﻟﻌﻢ ﻳﻐﻔﻞ ﺳﺎﻋﺔ ﻭﻻ ﺃﻥ ﻣﺎ ﺗﺨﻔﻰ ﻋﻠﻴﻪ ﻳﻐﻴﺐ .

ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻟﻪ ﻣﻠﻚ ﺍﻟﺴﻤﻮﺍﺕ ﻭﺍﻟﺄﺭﻅ ﻭﺍﻟﻰ ﺍﻟﻌﻢ ﺗﺮﺟﻊ ﺍﻟﺄﻣﻮﺭ } ﺃﻱ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﺎﻟﻚ ﻟﻠﺪﻧﻴﺎ
ﻭﺍﻻﺧﺮﺓ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻭﺇﻥ ﻟﻨﺎ ﻟﻼﺧﺮﺓ ﻭﺍﻟﺄﻭﻟﻰ } ﻭﻫﻮ ﺍﻟﻤﺤﻤﻮﺩ ﻋﻠﻰ ﺫﻟﻚ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ :
{ ﻭﻫﻮ ﺍﻟﻌﻢ ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﻫﻮ ﻟﻪ ﺍﻟﺤﻤﺪ ﻓﻰ ﺍﻟﺄﻭﻟﻰ ﻭﺍﻻﺧﺮﺓ } ﻭﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺍﻟﺤﻤﺪ ﺍﻟﺬﻱ ﻟﻪ ﻣﺎ
ﻓﻰ ﺍﻟﺴﻤﺎﻭﺍﺕ ﻭﻣﺎ ﻓﻰ ﺍﻟﺄﺭﻅ ﻭﻟﻪ ﺍﻟﺤﻤﺪ ﻓﻰ ﺍﻻﺧﺮﺓ ﻭﻫﻮ ﺍﻟﺤﻜﻴﻢ ﺍﻟﺨﺒﻴﺮ } ﻓﺠﻤﻴﻊ ﻣﺎ ﻓﻰ ﺍﻟﺴﻤﻮﺍﺕ
ﻭﺍﻟﺄﺭﻅ ﻣﻠﻚ ﻟﻪ ﻭﺍﻫﻠﻬﻤﺎ ﻋﺒﻴﺪ ﺍﺭﻗﺎﺀ ﺃﺫﻻﺀ ﺑﻴﻦ ﻳﺪﻳﻪ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻳﻦ ﻛﻞ ﻣﻦ ﻓﻰ
ﺍﻟﺴﻤﺎﻭﺍﺕ ﻭﺍﻟﺄﺭﻅ ﺇﻻ ﺃﺗﻰ ﺍﻟﺮﺣﻤﻦ ﻋﺒﺪﺍ * ﻟﻘﺪ ﺃﺣﺼﺎﻫﻢ ﻭﻋﺪﻫﻢ ﻋﺪﺍ * ﻭﻛﻠﻬﻢ ﺃﺗﻴﻪ ﻳﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ
ﻓﺮﺩﺍ } ﻭﻟﻬﺬﺍ ﻗﺎﻝ : { ﻭﺍﻟﻰ ﺍﻟﻌﻢ ﺗﺮﺟﻊ ﺍﻟﺄﻣﻮﺭ } ﺃﻱ ﺇﻟﻴﻪ ﺍﻟﻤﺮﺟﻊ ﻳﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ ﻓﻴﺤﻜﻢ ﻓﻰ ﺧﻠﻘﻪ
ﺑﻤﺎ ﻳﺸﺎﺀ ﻭﻫﻮ ﺍﻟﻌﺎﺩﻝ ﺍﻟﺬﻱ ﻻ ﻳﺠﻮﺭ ﻭﻻ ﻳﺰﻟﻢ ﻣﺘﺜﺎﻝ ﺫﺭﺓ ﺑﻞ ﻳﻦ ﻳﻜﻦ ﻋﻤﻞ ﺃﺣﺪﻫﻢ ﺣﺴﻨﺔ ﻭﺍﺣﺪﺓ
ﻳﺰﺍﻋﻔﻬﺎ ﺇﻟﻰ ﻋﺸﺮﺓ ﺃﻣﺘﺎﻟﻬﺎ { ﻭﻳﻮﺕ ﻣﻦ ﻟﺪﻧﻪ ﺃﺟﺮﺍ ﻋﻈﻴﻤﺎ } ﻭﻛﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻭﻧﺴﻊ
ﺍﻟﻤﻮﺍﺯﻳﻦ ﺍﻟﻘﺴﻂ ﻟﻴﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ ﻓﻼ ﺗﻈﻠﻢ ﻧﻔﺲ ﺷﻴﺌﺎ ﻭﺇﻥ ﻛﺎﻥ ﻣﺘﺜﺎﻝ ﺣﺒﺔ ﻣﻦ ﺧﺮﺩﻝ ﺃﺗﻴﻨﺎ ﺑﻬﺎ
ﻭﻛﻔﻰ ﺑﻨﺎ ﺣﺎﺳﺒﻴﻦ } ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻳﻮﻟﺞ ﺍﻟﻠﻴﻞ ﻓﻰ ﺍﻟﻨﻬﺎﺭ ﻭﻳﻮﻟﺞ ﺍﻟﻨﻬﺎﺭ ﻓﻰ ﺍﻟﻠﻴﻞ } ﺃﻱ
ﻫﻮ ﺍﻟﻤﺘﺼﺮﻑ ﻓﻰ ﺍﻟﺨﻠﻖ ﻳﻘﻠﺐ ﺍﻟﻠﻴﻞ ﻭﺍﻟﻨﻬﺎﺭ ﻭﻳﻘﺪﺭﻫﻤﺎ ﺑﺤﻜﻤﺘﻪ ﻛﻤﺎ ﻳﺸﺎﺀ ﻓﺘﺎﺭﺓ ﻳﻄﻮﻝ ﺍﻟﻠﻴﻞ
ﻭﻳﻘﺺ ﺍﻟﻨﻬﺎﺭ ﻭﺗﺎﺭﺓ ﺑﺎﻟﻌﻜﺲ ﻭﺗﺎﺭﺓ ﻳﺘﺮﻛﻬﻤﺎ ﻣﻌﺘﺪﻟﻴﻦ ﻭﺗﺎﺭﺓ ﻳﻜﻮﻥ ﺍﻟﻔﺼﻞ ﺷﺘﺎﺀ ﺗﻢ ﺭﺑﻴﻌﺎ ﺗﻢ
ﻗﻴﻄﺎ ﺗﻢ ﺧﺮﻳﻔﺎ ﻭﻛﻞ ﺫﻟﻚ ﺑﺤﻜﻤﺘﻪ ﻭﺗﻘﺪﻳﺮﻩ ﻟﻤﺎ ﻳﺮﻳﺪﻩ ﺑﺨﻠﻘﻪ { ﻭﻫﻮ ﻋﻠﻴﻢ ﺑﺫﺍﺕ ﺍﻟﺼﺪﻭﺭ } ﺃﻱ
ﻳﻌﻠﻢ ﺍﻟﺴﺮﺍﺋﺮ ﻭﺇﻥ ﺩﻗﺖ ﻭﺇﻥ ﺧﻔﻴﺖ